

صور من التاريخ الإسلامي

١ - الفردوسي^(١)

للأستاذ عبد الحميد العبادي

احتفلت الأمة الإيرانية في أكتوبر الماضي بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن الحفاوة بتلك الذكرى مقصورة على الإيرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه ، فأوفدت ثمانى عشرة دولة كبيرة إلى إيران من يمثلها في الاحتفال بذكرى الفردوسي ، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للإيرانيين والمبالغة في تقدير شاعرهم فاحتفى بتلك الذكرى احتفاء خاصاً في عواصمه . فعل ذلك الألمان في برلين ، والانجليز في لندن ، والفرنسيون في باريس ، والايطاليون في رومية . وعما قريب تحذو مصر حذوهم فتهب ذكرى الفردوسي أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فضلائها عن حياة الفردوسي وشعره ، وعن أثر قومه في عالم الفن والأدب

وأريد بهذه المناسبة أن أعرض في هذا المقال وفي مقال آخر آت ببيان وجيز لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسي . وسنرى أن البحث سيكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنقذ قومية ولغة كان يتنازعهما البقاء والدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بنصيب موفور في ميراث العالم الأدبي الباقي على وجه الزمان

هو أبو القاسم الحسن بن علي الفردوسي ، وكلمة (الفردوسي) لقبه الشعري ، فقد جرت عادة الفرس من قديم أن يخلعوا على

(١) أذيع مضمون هذا المقال بالراديو من محطة الأذاعة المصرية في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ . هذا ولم تقصد في بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الفنية فليس ذلك من شأننا ، إنما قصدنا إلى التحدث عنه من حيث أن حياته تلتق ضوءاً على الحال السياسية لآسيا الوسطى الإسلامية في القرن الرابع الهجري . ومن يروى الشاعر نفسه فليتبسها في مظانها وخاصة الشاهنامه نفسها ، ومقدمة (مول) للترجمة الفرنسية للشاهنامه ، وكتاب تولدكه عن الشاهنامه ، ومقدمة الدكتور هزيم لترجمة البنداري العربية للشاهنامه

شعرانهم ألقاباً خاصة كالديقي ، وملك الشعراء ، وعظم الشعراء وهكذا . ولد على رأى بعض النقات حوالى عام ٣٢٥ هـ بقرية من قرى مدينة طوس بخراسان يقال لها (باز) ، وورث عن أبيه ضياءاً كانت تقل عليه في صدر حياته كفايته من المال . وتعلم في حدائته ما كان يتعلمه أمثاله من أبناء الدهاقين في ذلك الزمان ، فحذق الفهلوية والعربية ، وشفق في صباه بقرض الشعر الفارسي والتوفر على مطالعة القصص الفارسي القديم . فأنشأ كل ذلك فيه اعتداداً بقومه واعتناقاً لمذهبهم الشيعي . وشدا شيئاً من آراء المتكلمين من المعتزلة ، فنشأ فارسي الهوى ، شيعي المذهب ، معتزلي الرأي

كان أمر خراسان في ذلك الوقت إلى الدولة السامانية ، وهي دولة فارسية من الدول التي تقسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية في بندا ابتداء من القرن الثالث الهجري . وقد جهد السامانيون في بث الروح القومي الفارسي مستعينين على ذلك بما للتاريخ والأدب من القوة في إذكاء الروح القومي عامة . فنقل وزيرهم البلعي رسم الأمير منصور الساماني تاريخ الطبري إلى الفارسية ، وتقدم عاملهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور الميمري في جمع أخبار الفرس القدماء في شكل تاريخ شعبي لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الإسلامي ، فعهد الميمري بالأمر إلى أربعة من الفرس الزرادشتيين لجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المحفوظة في قلاع فارس ، وفي جزائن الموايد والدهاقين . ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه « الشاهنامه » أي « كتاب الملوك » ، وكان ذلك حوالى عام ٣٤٧ هـ ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله فعهد الأمير نوح ابن منصور الساماني بنظمه شعراً إلى فتي فارسي شاعر يعرف بالديقي . فأخذ الديقي في ذلك فنظم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالى عام ٣٦٦ هـ

اطلع الفردوسي على الشاهنامه المنثورة وعلى ما نظم الديقي منها من نسخة أعاره إليها صديق له يقال له (محمد لشكري) . وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الديقي ، وصادف ذلك هوى في نفسه ، فامثل الإشارة وعكف على نظم الشاهنامه من حيث انتهى صاحبه ، فقضى في ذلك ثلاثاً وعشرين سنة أتم

فيها نسخة الشاهنامة الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبراء الفرس الظاهريين بأرض أصبهان يقال له أحمد الخالنجاني ، فأجازها عليها بجائزة يسيرة

في تلك السنين الطوال كانت خراسان قد تبدلت بها الحال ، لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستنيرة ، وعمرها مايمرو البلاد عادة عند التأذن بذهاب دولة وقيام أخرى . فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق الري ، والبلاد يهدُّ بلاد زراعية ، فشح الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، ونالت ملاك الأراضي شدة تعذر عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسي بطبيعة الحال من ضحايا تلك الشدة الاقتصادية ، وزاده ضنكا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب المحض ، واضطراره إلى أن يستكفي غيره النظر في شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال وانحما في ترديده في شعره الشكوى من الفاقة وتنكر الزمان . وقد اضطر أخرة الأمر إلى مسألة أصدقائه ، فأعانه منهم نفر كرام النفوس أو فناء القلوب ، كافأهم عن صنيعهم بأن نوه بذكرهم في الشاهنامة . والحق أن الفردوسي ، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهوده الأدبية بمال يزوج منه ابنته الوحيدة ، وينفق منه على نفسه في شيخوخته . وطفق لذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدي إليه الشاهنامة فيجيزه عنها بجائزة تحقق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملك الجليل في شخص السلطان محمود الغزنوي

والسلطان محمود الغزنوي أوحده ملوك الاسلام لذلك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الاسلامي على الإطلاق . قد شاد بمزمه وهمة ملكاً عربياً وسع سهل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وطبرستان ، وفارس . وأصبحت قاعدته (غزنة) بساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعلومها الأعلا من أمهات المدن الاسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط في مدينة أسوية في وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بنزلة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفا بالعلم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الاسلامية ليقومهم بحضرته ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التي طبقت

الآفاق . ومن العلماء الذين حفلت بهم غزنة على عهده ، البيروني والتمبي المؤرخان ، والفارابي الفيلسوف ، وأبو الفتح البستي الشاعر العربي ، والمسجدي والمنصري والفرخي ، وكلهم من سباق شعراء الفرس في الاسلام . وكان الرئيس أبو علي بن سينا قد قصد حضرة السلطان ثم بداله فمدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام بمعاصمته متودعاً ، جلس إلى أولئك العلماء يحدثهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو في تصيده العلماء ومباهاته بهم يذكرنا بسيف الدولة الحمداني ، والحكم المستنصر الأندلسي ، وبفردريك الأكبر ملك بروسيا ، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا

ذلك هو الملك الجليل الذي رآه الفردوسي مهوى فؤاده ومحط آماله . فأخذ يمد المدة لا تتجاع حضرته والاعتراف من فيض جوده . فجعل يراجع الشاهنامة ، مطامناً بين أجزائها ، مكمل ما نقص منها ، مستدركاً ما فاته في نسخها الأولى ومحلها فصولها يمدح سنية بطوق بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى في ذلك إحدى عشرة سنة ، فقد فرغ من إعداد النسخة الثانية للشاهنامة عام ٤٠٠ هـ وبلغت عدة آياتها ستين ألفاً

توجه الفردوسي إلى غزنة ومعه راويه ونسخة الشاهنامة ، فلقى وزير السلطان الرئيس الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان معنياً بنشر الفارسية ، فأبلغه حضرة السلطان . واطلع السلطان على الشاهنامة ، ولا ريب أنه أدرك أنها نعمة محمود عقل جبار ، ولكنه مع ذلك لم يتقبلها بقبول حسن . والروايات القديمة مجمعة على أن الوشاية والكيد قد عملا عملهما في إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معاً . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم . فليس من شك في أن ذلك السلطان التركي السلم ، الذي أنفق من الجهد في إعلاء كلمة الاسلام في الهند ما أنفق ، والذي كان نصيراً للسنه ، وخصاً للباطنية والمعتزلة ، هذا السلطان لم يعجبه أن يشيد الفردوسي بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم ، كما لم يعجبه أن يتفخ في بوق المصيبة الفارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التي وقعت في القديم بين إيران وطوران ، كما لم يعجبه تشييمه وجهه بأرائه الدالة على اعتزاله . كل ذلك قعد بالسلطان أن يجيز الشاعر بالجائزة التي كان يتوقعها ، والتي كان يماق عليها

الجواب ؟ « فتمثل الوزير بيت من الشاهنامة معناه « إذا لم يكن الجواب كما أريد ، فأما والجرز والميدان وافرسياب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذي تنبئ بالشجاعة منه ؟ » قال « للسكين أبي القاسم الفردوسي الذي احتمل العناء خمسا وعشرين سنة وما جنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسنت بما ذكرني ، إني ليجزني أن يحرم عطائي هذا الرجل الحر ، ذكرني في غزاة لأرسل اليه شيئا » فلما قدم الوزير غزاة ذكر السلطان ، فقال السلطان « سر لأبي القاسم بستين ألف دينار يقطاها نيلجا ، ويحمل على الأبل السلطانية ، ويمتد إليه »

غير أن القدر الساهر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ما وصلت الأبل التي تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الروح (٤١١ هـ) ، وإنه بينما الأبل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر وأراد رسل السلطان أن يدفعوا الهدية إلى ابنة الفردوسي ، ولكنها اعتذرت عن عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان أن ينفق المال في بعض وجوه البر ، فعمروا به رباطا للجهاديين على حدود إقليم طوس . وكذلك نفى السلطان عن نفسه آخرة الأمر مهمة التقصير في حق الشاعر الكبير . فان ادعى مدح أنه ظلمه في الأولى فقد أنصفه في الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم

تلك بالاختصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي . وهي سيرة تفصح عما أوتي به ذلك الشاعر من قوة تتمثل في صدق عزيمته ، وبعد همته ، وعظم غايته ، وثبات مقصده ، كما أنها تفصح عن ضعفه الذي يبدو في حدة مزاجه ، وكثرة شكواه من الفاقة وتبرمه بالناس والزمان ، ثم في ندمه في مطلع قصته الثانية على ما أنفق من جهده وأضاع من عمره في نظم ملحمة الأولى . على أن ذلك كله ليس مناط تعظيم قومه لذكراه ، إنما مناط ذلك هو الصنيع الجليل الذي أسداه إلى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة .

ولبيان ذلك ينبغي أن ترجع مع الزمن إلى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حمل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وما هي إلا سنوات معدودات ، حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان ،

آمالا كبارا . فيقال إنه بعث إليه بمشرين ألف درهم فقط مكافأة على مجهود خمس وثلاثين سنة

لكن الفردوسي لم يكن الرجل الذي يحتمل هذا التقصير في حقه . فقد جرى السلطان شر جزاء . فيقال إنه دخل حماما فلما خرج منه شرب فقاغا ، ثم قسم عطية السلطان بين الخماي والفقاعي . وبلغ ذلك السلطان فهاج غضبه ، وهم بأن يبطش بالشاعر ، فلما فردوسي بالفرار من غزاة ، وظل مختبئا بمدينة هراة ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجاء لاذعا موجعا . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها الأصميد شهر يار فأكرم متواه وطيب خاطره ، واعتذر إليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغي ، واشترى منه هجو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم عما ذلك الهجو من الشاهنامة محوآ . بيد أن الفردوسي رأى أنه غير آمن على نفسه في طبرستان لأنها داخلة في حكم السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق العربي ، ونزل على أميره سلطان الدولة البويهية . ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهي من قصص القرآن الكريم . والفردوسي يصرح في صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيرا عن إضاعته عمره في نظم الشاهنامة ، التي حشوها أساطير الفرس الأولين ، ولكن يظهر أن الفردوسي أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بين نفسه وبين البيئة العربية التي أدى به تطوافه إليها

ومهما يكن من شيء ، فلا شك أن الفردوسي رأى نفسه غريبا بالعراق ، وأن سراج حياته يوشك أن ينطفئ ، وأحب أن يوافيه أجله في مسقط رأسه ، قريبا من ابنته ووسط أهله ومعلمه ، وهون الخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان قد نسي أو تنسى ببلاد غزاة . ففرج من العراق شاخصا نحو طوس ، فبلغها شيخا فانيا مهودود القوى قد جاوز الثمانين

وتذكره السلطان محمود في ذلك الوقت . وذلك أنه كان راجعا من الهند إلى عاصمة ملكه ، فعرض له نازر في قلعة حصينة ، فأرسل السلطان إلى النازر رسولا أن « إيت غدا . وقدم الطاعة واخدم حضرتنا ، والبس التثريف ، وارجع » فلما كان الغد ركب السلطان وإلى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الميمندي . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلا قال للوزير « ترى ماذا يحمل من

قومه بهذا المدد . قالشاهنامه تمى بأبسط عبارة وأبلغ تصوير
تأريخ الفرس القدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . لذلك
أضحت في حياة ناظمها - وهذا أمر منقطع النظير - ملحمة
قومية ، ولم يمض طویل زمن حتى غدت « قرآن القوم » على
حد تعبير صاحب المثل السائر

لقد أدى الفردوسي « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح
فضله على قومه ولفته باقياً ما بقي قومه ولفته وقد عرف له قومه هذا
الفضل فذكروه في هذه الأيام فأحسنوا ذكره ، وشادوا فوق رفاته
بناءً عالياً ، وهذا جهد مثوبة الحى للميت . وإن الإنسان ليدكر
في هذا المقام دانتي الأيطالى ، وكورياس اليونانى ، فكلاهما أذكرى
الروح القومى في بلده ، وجدد بمجهوده الخاص دارس لفته ، هذا
بنثره ، وذاك بشمره .

عبد الحميد البشارى

(البقية في العدد القادم)

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفاءك

صحائف من العشرتين

شعر الجبر والجمال (المرتبة)

مترجمة بقلم

محمد الزيات

والقصة قطعة من شباب لامرئين ، وجذوة من
شعوره ، ولحن من شمره . طبعتها لجنة التأليف والترجمة
والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلها منها أو من إدارة
الرسالة أو من أى مكتبة ، والتمس ١٢ قرشاً

وصبروا فارس أقلياً من أقاليم الخلافة العربية ، وانتشر الاسلام
بمقرب ذلك في فارس حتى كاد يقضى على الدين الزرادشتى ، كما
انتشرت العربية بين الفرس حتى أخلت الفهلوية وكادت تمحوها
قبل الفرس الاسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر . أما
القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عظيماً . وقد
تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة قام بها الموالى زمن
الدولة الأموية ، الى مؤازرة للتأثرين عليها من الخوارج والشيعة ،
الى ثورة عامة أنجلت عن سقوط الدولة الأموية العربية ، وقيام
الدولة العباسية التى كانت فارسية في أكثر أوضاعها العامة ، الى
الى استقلال سياسى يسره ضعف السلطة المركزية يفتداد ، الى
سمى حثيث في أن يكون للفرس وجود قومى صحيح
الى هذا المجهود الضخم الموجه الى الاحتفاظ بالقومية ، قام
الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنهاض لغتهم وتعميم استعمالها
في بلادهم .

لقد طفت العربية على الفهلوية في العصر العربى الأول طغياناً
كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة في حدود إقليمية ضيقة :
في فارس وخراسان وطبرستان ، ولم تسلم الفهلوية في معاقلها
هذه من التأثر بالعربية ، فقد أصبحت تكتب بالحرف العربى
ودخلها ألفاظ وتماير عربية أحوالها الى طور جديد من تاريخها
عرفت فيه بالفارسية الحديثة . وبشبه الشعور القومى عم استعمال
اللغة المذكورة في تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنمحي
من بعضها ، كما يؤخذ من قول المتنبي : -

مقانى الشعب طيباً في المقانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنسة لو سار فيها سليلان لسار بترجان
وقد عول سياسة الدول الثلاث : الطاهرية والصفارية
والسامانية ، على أن يجملوا الفارسية الحديثة لغة أدب وثديين ،
فشجعوا الثمراء على النظم بالفارسية ، وأمر السامانيون بتدوين
تأريخ قومى للفرس ، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزه الفرس في أمر قوميتهم
ولغتهم ، فإنهم كانوا في أواخر القرن الرابع بحاجة الى مدد أدبى
ممتاز يمث في القومية الفارسية روحاً قوياً ، وبشت دعائم
الفارسية الحديثة ويهضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسى